ثورة الحسين ع

«في الواقع التاريخي والوجدان الشعبي»

● الشيخ محمد مهدي شمس الدين

نسال : ما معنى أن نطلق صفة الخلود على انسان من الناس ، أو حدث تاريخي من أحداث الناس ، أو رائعة من روائع العقل الانساني ؟

ونجيب : أن نستشعر الحاجة اليها باستمرار ، أو بين الحين والآخر ، نعود الى الانسان الخالد فنقرأ ، أو نسمع أو نرى تاريخه ، ونستعيد حياته . ونعود الى الحدث الخالد فنسترده في عقولنا وقلوبنا ، ونثري به حياتنا ، ونغني به وجودنا ، ونضيء به وبصانعيه دروبنا ، ونعود الى روائع القريحة الانسانية فنروي بها قلوبنا الظمأى .

ونسال : كيف ، ولماذا كتب الخلود لبعض الناس أو الأحداث ، أو الروائع ؟

ونجيب : لأنها تشتمل على الحقيقة الحية الدائمة ، فثمة من الأشخاص والأحداث والآثار ما يشتمل على الباطل وعلى الزيف وعلى الافتعال ، وهذا لا يدوم الا ريثما ينكشف ، ومنها ما يشتمل على حقيقة محدودة ، وعمره محدود ، بعمر محتواه في حياة الناس .. ومنها ما يشتمل على الحقيقة الحية الدائمة ، التي تتصل بالتكوين الدائم للعقل والقلب ، وهذا يكون خالداً باستمرار ، لأنه يلبي حاجة دائمة في قلب الانسان وعقله ، في مطامحه وآماله الكبار .

وهو ما يصدق بدقة عجيبة على الحسين وثورته : على الحسين في الخالدين من الناس ، وعلى ثورته في الخالدات من الأحداث .

ومن هنا عودتنا الى الحسين والى ثورته باستمرار : عودتنا اليه في جميع مراحل حياته ، وعودتنا اليه في الذروة من هذه الحياة ، وهي ثورته ، نستعيدها ونتفهمها ونعايشه في مراحلها ، من بدايتها الى نهايتها الدامية المشرفة وننفعل بها ، لأننا بعد أن اكتشفناها اكتشفنا أنفسنا فيها ، اكتشفنا فيها أجزاء من قلوبنا ، ومن مطامحنا ، ومن انسانيتنا ، وسمعنا منها أكثر من نداءٍ يهتف بأنبل ما يشتمل عليه تكويننا الانساني .. بعد أن اكتشفناها على هذا النحو غدونا نشعر بالجوع اليها ، بالحاجة اليها .

فلنحاول جميعاً الآن ، ونحن نعيش في ظلال ذكراها في الزمان ، أن نتلمسها في التاريخ ، وأن نتلمسها في الوجدان الشعبي :

(١)
في الواقع التاريخي

كان المسلمون قد واجهوا الحكم الأموي بالغضب والسخط ، وأدركوا فوراً بُعْد هذا الحكم عن الخط الاسلامي الصحيح .. وذلك حين افتقدوا فيه الروح الاسلامية التي ألفوها قبل هذه الفترة ، اذ اكتشفوا أن الخلافة الاسلامية قد تحولت الى ملك أموي .

ولأضع أمامكم صورة غنية ببعض التفاصيل ، أذكر لكم الرأي الذي تبناه الدكتور حسن ابراهيم مدير جامعة اسيوط في كتابه «تاريخ الاسلام ١ ـ ٢٧٨ ـ ٢٧٩» قال :

«اعتبر المسلمون انتصار بني أمية ، وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للارستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتي جاهدها رسول الله حتى قضى عليها ، وصبر معه المسلمون فقضوا عليها ، وأقاموا على أنقاضها دعائم الاسلام ، ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السراءِ

والضراءِ ، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ويستذلـون الضعفاء ، ويبتـزون الأموال ، لذلك لا ندهش أذا كره المسلمون بني أمية ، وغطرستهم وكبرياءهم وإثارتهم للأحقاد القديمة ، ونزوعهم للروح الجاهلية ، ولا سيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الامويين رجالاً كثيرين لم يعتنقوا الاسلام إلا سعياً وراء مصالحهم الشخصية» .

هذا هو التشخيص التاريخي لما حدث حينذاك .

ولكن الحكم الجديد استطاع شيئاً فشيئاً أن يقيم جهازاً محكماً ـ بوليسياً وإعلامياً ـ يعمل باتقان تام على تبديد النظرة التي وُوجه بها النظام ، ليحل محلها نظرة جديدة ، ويعطى النظام صفة الشرعية التي نزعها المسلمون عنه .

وقد استخدم هذا الجهاز في تبديد قوة الخصوم المعارضين بإثارة الصراع القبلي على أوسع نطاق ، وإرهاب المعارضة بالقتل ، والمطاردة ، وهدم البيوت ، وقطع الأرزاق من بيت المال ، وكل وسيلة تجعل المعارضة في حالة رعب مستمر .

حتى تهجير السكان على نطاق واسع استخدم في هذا السبيل ، فقد حمل زياد بن سميه ـ والي العراق ـ خمسين الفاً من الكوفيين وأجبرهم على النزوح من الكوفة الى خراسان ، وبذلك حطم المعارضة في الكوفة وخراسان معاً .

ولعل أخطر ما حدث هو سياسة التخدير الديني التي كان الهدف منها التغلب على الشعور المادي بسلاح الدين نفسه ، والتوصل الى تحطيم ما لأهل البيت من سلطان روحي على المسلمين عن هذا الطريق أيضاً .

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الأسماء البارزة من الصحابة والتابعين عملوا على إيجاد تبرير ديني لسلطان بني أمية ، أو ـ على الأقل ـ لكبح الجماهير عن الثورة برادع داخلي هو الدين نفسه ، ليعمل مع الروادع الخارجية : التجويع ، والارهاب ، والانشقاق القبـلي والعنصري .

هذا ، بالاضافة الى مهمة أخرى القيت على عاتق هؤلاء الأشخاص ، وهي اختـلاق الأحاديث التي تتضمن الطعن في أهل البيت ونسبتها الى النبي (ص) .

وأذكر لكم حديث العجاج نموذجاً من أحاديث التخدير الديني التي اختلقها جهاز معاوية الاعلامي ونسبها الى الدين :

حدث العجاج قال : (قال أبو هريرة : ممن أنت ؟ قال قلت : من أهل العراق . قال : يوشك أن يأتيك بقعان أهل الشام فيأخذون صدقتك ، فاذا أتوك فتلقهم بها ، فاذا دخلوها فكن في أقاصيها ، وخل عنهم وعنها ، وإياك أن تسبهم ، فانك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك ، وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة) .

وثمة ركام من أمثال هذا الكذب الذي يدعو المسلمين الى الخضوع لامرائهم الظالمين ، ويحرم عليهم الثورة والاحتجاج على هؤلاء الأمراءِ وحتى نقدهم . وقد دأب المأجورون من الوعاظ والمحدثين على نفث هذه السموم في قلوب الجماهير المسلمة وعقولها ، هادفين الى حجزها عن التذمر والثورة بحاجز ينسبونه الى الدين والدين منه بريء .

عشرون عاماً تقريباً مرت على المسلمين وهم يحكمون بهذا الأسلوب ، ويخضعون لهذا التوجيه ، حتى شلت فيهم كل قدرة على الاحتجاج والثورة .، وعن هـذا الطريق استطاع معاوية أن يسبغ على نظامه شرعية مزيفة ، وفي ظل هذه الشرعية جاء يزيد بن معاوية خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وأميراً للمؤمنين .

وقد صور لنا عبد الرحمن بن هشام السلولي نظرة المسلمين الى خلافة يزيد ـ في هذه ـ الأبيات المعبرة :

فان تاتوا برملة او بهند
نبـايعهـا أمـيرة مؤمنينـا

اذا ما مات كسرى قام كسرى
نعد ثلاثة متناسقينا
فيا لهفاً لو أن لنا أنوفاً
ولكن لا نعود كما عنينا
إذاً لضربتموا حتى تعودوا
بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا
دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم
تصيدون الأرانب غافلينا

بهذا السخط المكبوت بعوامل القمع المادي والتخدير الديني واجه المسلمون خليفتهم الجديد ، وعند هذه المرحلة من التبدلات السياسية والاجتماعية والانسانية في المجتمع وجد الحسين نفسه يواجه - وحيداً - دوره التأريخي الصعب :

الحكم الأموي بكل ما يحفل به من فساد وظلم ، وبكل ما يعد به عهد يزيد من تحريف للاسلام ، واستهتار به وتسخير له في خدمة الشهوات والمآرب ، هذا من جهة .. والأمة المسلمة بذلها ، وتصدعها ، وحرمانها ، وانطفاء القدرة على التغيير فيها من جهة أخرى .. ومركزه العظيم في المسلمين الذي يجعله على يقين بأن حكم يزيد لن ينال صفة الشرعية اذا وقف ضده ، أما إذا بايعه فانه يكون قد أكسب الغل الجديد الذي طوقت به الأمة المسلمة صفة الشرعية ..

وقد استجاب الحسين لدوره التاريخي ، وبدأ ثورته في كلمات بسيطة ، واضحة وحاسمة ، ووجهها الى والي المدينة الوليد بن عتبة ، وذلك حين قال له :

«.. أنا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح الله وبنا ختم ، ويزيد فاسق ، فاجر ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحترمة ، معلن بالفسق والفجور ومثلي لا يبايع مثله» .

ولكن علينا أن نعلم أن الحسين أعلن ثورته في مجتمع خامد متخاذل ، فقد حرارته وفعاليته واندفاعه . لقد كان قادة المجتمع وعامة أفراده إذ ذاك يقعدون عن أي عمل ايجابي لتطوير واقعهم السيء ، بمجرد أن يلوح لهم ما قد يعانون في سبيل ذلك من عذاب ، وما يضطرون الى بذله من تضحيات . وكانوا يقعدون عن القيام بأي عمل ايجابي بمجرد أن تحقق لهم السلطة الحاكمة بعض المنافع القريبة .

ولم يكن هذا خلق السادة وحدهم ، بل كان خلق عامة الناس أيضاً . لقد كان أولئك الذين قالوا للحسين «قلوب الناس معك وسيوفهم عليك» صادقين الى حد بعيد في تصوير ذلك المجتمع ، فان قلوب الناس كانت معه لأنهم يحبون أن يصيروا الى حال أحسن من حالهم ، ولكنهم حين علموا أن ذلك موقوف على بذل تضحيات قد تصل الى بذل الحياة انكمشوا ، ووضعوا سيوفهم في خدمة السلطة الأموية التي تدفع لهم أجر قتالهم لهذا الذي جاء بدعوة منهم ليحررهم من تلك السلطة .

فحين استيقن ابن زياد أن الحسين ماض في ثورته جمع الناس في مسجد الكوفة ، خطبهم ، ومدح يزيد وأباه ووعد الناس بتوفير العطاء لهم ، وزادهم في أعطياتهم مائة مائة ، وأمرهم بالاستعداد والخروج لحرب الحسين .

في مجتمع كهذا ثار الحسين ..

وهنا نتساءل : كيف يسير انسان الى الموت مع طائفة من أخلص أصحابه طائعاً مختاراً ، وكيف يحارب في سبيل قضية يعلم أنها خاسرة ؟ وكيف يمكن لعدوه من نفسه هذا التمكين ؟..

إن علينا لكي نفهم ثورة الحسين أن نبحث عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآني الحاسم ، وفي غير الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان .

فان النصوص المتوفرة لدينا بصراحة على أن الحسين كان عالماً بالمصير الذي كان ينتظره ، لقد كان يجيب من ينصحونه بالمهادنة والسكون ويخوفونه من الموت بأمثال قوله :

«لقد غسلت يدي من الحياة وعزمت على تنفيذ أمر الله» .

إذن فأين نجد أهداف ثورة الحسين ؟ الذي أعتقده : هو أن وضع المجتمع الاسلامي إذ ذاك كان يتطلب القيام بعمل انتحاري فاجع يلهب الروح النضالية في هذا المجتمع ويتضمن أسمى مراتب التضحية ونكران الذات في سبيل المبدأ ، لكي يكون مناراً لجميع الثائرين حين تلوح لهم وعورة الطريق ، وتضمحل عندهم احتمالات الفوز ، وترجح عندهم أمارات الفشل والخذلان .

ان المجتمع الذي خضع طويلا لتأثير التخدير الديني ، والقمع المادي لا يمكن أن يصلح بالكلام ، فهو آخر شيء يمكن أن يؤثر فيه ..

ان الكلمة لا يمكن أن تؤثر شيئاً في النفس الميتة والقلب الخائر ، والضمير المخدر .

كان لا بد لهذا المجتمع من مثال يهزه هزاً عنيفاً ، ويظل يواليه بايحاءاته الملتهبة ليقتلع الثقافة العفنة التي خدرته ، وقعدت به عن صنع مصير وضاء . وقد كان كل ذلك وكانت ثورة الحسين .

لقد أراد الحسين أن يكشف لمجتمعه عن بؤس الواقع وإفلاسه ، وعن أخطار المستقبل وأهواله ، وأن يبرهن على صدق رؤيته للحاضر والمستقبل بتضحيته الفريدة ، ليجعل من القضية شيئاً يتوهج في ضمير الأمة وقلبها ، ويذيب بحرارته ونقائه كل الخبث الذي ترسب في أعماقها فيردها الى طهارتها ، ويرد اليها شخصيتها الأصيلة الضائعة فتواجه واقعها بالأسلوب الوحيد الصحيح : نبذ التحريفية الدينية التي انتهجها الأمويون ، والثورة .

فهل تحقق هذا الهدف ؟

نعم ، لقد تحقق . لقد حطمت ثورة الحسين الإطار الديني الذي أحاط - الأمويون به حكمهم ، لقد انتزعت مرة واحدة والى الأبد الشرعية المزيفة التي كان الحكم الأموي يتستر وراءها ، وظهر للأعين المدهوشة على حقيقته البشعة : حكماً بربرياً ، جاهلياً ، بعيداً عن الاسلام ، لا يتورع عن شيء في سبيل تحقيق أهدافه ومقاصده .

وقد كانت الثورة عاملا حاسماً في تعاظم التيار الاسلامي المبرأ من الانحراف والتزوير بما كشفت من تحريفية الحكم الأموي ولا شرعيته ، ومن ثم لا إسلامية الخط الذي يمثله .

وبشرت الثورة بأخلاق جديدة تمثل الأخلاق الاسلامية الانسانية ، وذلك حين دعت - بسلوك أبطالها وقائدها الى التلاحم المطلق مع العقيدة ، وذلك بممارستها بصدق وإخلاص على صعيد الحياة العامة ، وعلى صعيد الناس العاديين ، ومصالح الأمة .

وقد ترتب على كل ذلك ، وغيره مما نذكره ، انبعاث الروح النضالية متوهجة عنيفة .

لقد أججت ثورة الحسين الروح النضالية التي حاول الأمويون إخمادها في - الأمة ، وبقيت مستمرة تعبر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية عاصفة ضد الحاكمين الظالمين ، وكانت الثورات تفشل دائماً ، ولكنها لم تخمد أبداً ، لأن الروح النضالية كانت باقية تدفع الأمة الى الثورة ؛ والى التمرد والى التعبير عن نفسها قائلة للطغاة : إني هنا .

حتى جاء العصر الحديث ، وتعددت وسائل القمع والاخضاع ، وحكمت الأمة بطغمة لا تستوحى مصالحها وإنما تخدم مصالح آخرين ، ومع ذلك لم تهدأ ولم تفلح في إخضاعها وسائل القمع الحديثة ، وانما بقيت ثائرة ، فأثبتت وجودها ، ولم يجرفها التاريخ ، وإنما بقيت لتصنع التاريخ .

ولا ندري تماماً ماذا كان سيحدث لو لم يقم الحسين بثورته هذه ، غير أننا نستطيع أن نحدس ذلك الآن . لقد كان يحدث أن يستمر الحكم الأموي داعماً نفسه بالدجل الديني ، وبفلسفة التواكل ، وبالقمع المادي . وكان يحدث أن تستحكم هذه الفلسفة وهذا الدجل الديني في الشعب فيطأطىء الشعب دائماً

لحاكميه ، ويستكين الحاكمون لموقف الشعب منهم فيلهون ، ويضعفون عن القيام بأعباء الحكم وصيانة الدولة ، ويغرقون في اللهو والترف . وعاقبة ذلك هي الانحلال : انحلال الحاكمين والمحكومين . وكان يحدث أن يكتسح البلاد الفاتحون فلا يجدون مقاومة ولا نضالاً ، بل يجدون انحلالاً من الحاكمين والمحكومين ، ثم يجرف التاريخ أولئك وهؤلاء .

ولكن ما حدث غير ذلك . لقد انحل الحاكمون حقاً وقد اكتسحت الدولة حقاً ، ولكن المحكومين لم ينحلوا ، بل ظلوا صامدين .

وكان ذلك بفضل ثورة الحسين .

(٢)
في الوجدان الشعبي

علينا حين نريد أن نتقصى ثورة الحسين في الوجدان الشعبي أن نذكر : أولاً ، المسارب التي دخلت منها هذه الثورة الى الوجدان بهذا العمق والشمول . وثانياً ، العوامل التي طورتها وصعدتها في هذا الوجدان :

أما عن المسارب التي دخلت منها الثورة فيبدو لي أنه يمكن تلخيصها في الأمور التالية :

١ ـ الجانب العقيدي :

فثورة الحسين ـ كما رأينا من خلال عرضنا التاريخي لها ـ اسلامية عامة ، تمت بدوافع اسلامية لغاية تنبيه الأمة على واقعها السيء ، ودفعها الى تحسينه عن طريق إثبات شخصيتها الاسلامية .

ومن هنا فهي ليست تراثاً مذهبياً للشيعة ، ولا يجوز أن تكون كذلك . وصبغتها المذهبية التي جاءت نتيجة لعوامل تاريخية ليس هنا مجال البحث عنها .

٢ ـ دعوة أهل البيت وتشجيعهم على ذلك :

فقد حرص أئمة أهل البيت على إبقاء الثورة وتفاصيلها الفاجعة حية في الذهنية العامة للأمة ، وذلك عن طريق التشجيع على قول الشعر وإنشاده فيها ، وعقدهم المجالس الخاصة لسماع هذا الشعر .

وسنوضح أبعاد هذه الدعوة ودوافعها بصورة أكثر تفصيلا .

٣ ـ الولاء وطبيعة المأساة :

لقد كانت الثورة من بدايتها حتى نهايتها فاجعة تثير الشجن والأسى العميق ، وقد كان الولاء لأهل البيت والتعلق بهم يدفع الى التعلق بذكرياتهم وإحيائها :

فمن جاذبية المأساة الخارقة ، ومن دفع الولاء والحب والاحترام الى تذكرها .. غدت المأساة عنصراً أساسياً في الثقافة التاريخية العامة عند الانسان المسلم بوجه عام والشيعي بوجه خاص .

وأما عن العوامل التي صعدت ثورة الحسين في الوجدان الشعبي وطورتها في المظاهر الاحتفالية والآثار الفنية ، وخاصة في الشعر ، فيمكن اجمالها في ثلاثة أمور :

الأول ـ ولاء الشيعة لأهل البيت على أساس أنهم الممثلون الأكثر أمانة وإخلاصاً وفهماً للاسلام .

الثاني ـ نفسية الانسان الشيعي التي تكونت بسبب ما عاناه عبر التاريخ من اضطهاد بسبب موقفه من بعض الأحداث التاريخية ، وبسبب اتجاهه العقيدي والفقهي ، وما أدى إليه هذا الوضع من تأجيج روح الثورة على الواقع البعيد من تعاليم أهل البيت عليهم السلام .

الثالث ـ موقف السلطات الحاكمة في العصور التاريخية ـ بعد ثورة الحسين ـ من إحياء ذكراه ، وزيارة قبره .

هذه في رأيي العوامل الأساسية ذات التأثير في كينونة ثورة الحسين في الوجدان الشعبي ؛ وسنتعرف على مدى مساهمة كل واحد منها

عندما ندرس ثورة الحسين في الوجدان الشعبي عبر مظهرين :

١ ـ المظاهر الاحتفالية (مجالس الذكرى) .

٢ ـ ظاهرة البكاء .

١ ـ مجالس الذكرى

لقد بدأت تظهر آثار ثورة الحسين في الوجدان الشعبي في شعر الرثاءِ لشهداء الثورة ، وفي شعر الندم والتوبة من أولئك الذين قعدوا عن مناصرة الثورة أو ساهموا في الحرب ضدها .

وقلعة الآثار التي ترجع الى الحقبة الأولى بعد الثورة تعود ـ في رأيي ـ الى الخوف من اضطهاد الأمويين الذين شنوا حملة واسعة النطاق لحصر أثر الثورة في حيز ضيق وذلك بعد أن اكتشفوا خطر التفاعلات التي أطلقت الثورة عقالها .

ولكن نشوب الثورة في الحجاز ضد الحكم الأموي وامتدادها الى العراق وغيره ، وانطلاق الأعمال الانتقامية ضد الأمويين وأعوانهم ، أطلق فيضاً من الشعر الرثائي لثوار كربلاء .

ويبدو لي أنه في هذه المرحلة بالذات بدأت المآتم الحسينية بشكل بسيط ، ولا بد أنها بدأت على شكل اجتماعات صغيرة يعقدها نفر من المسلمين الناقمين ـ من اتباع أهل البيت وغيرهم ـ في بيت أحدهم ، فيتحدثون عن الحسين وعما جرى عليه ، وينتقدون السلطة التي حاربته . وامتدادها القانوني المتمثل في السلطة المعاصرة لهم ويتبرأون منها ؛ وربما تناشدوا شيئاً من شعر الرثاء الذي قيل في الثورة وفي بطلها وقتلاها .

وقد تطورت هذه المآتم عبر العصور ، فمرت في أدوار متميزة حتى انتهت الى أيامنا هذه على الشكل الذي تقام به الآن ، وسنعرض لهذه الأدوار فيما بعد ، انما الذي نريد أن نوضحه الآن هو العوامل التي أنشأتها ؛ وأعطتها قوة الاستمرار الى الآن ، وهي عدة أمور :

الأول ـ الانفعال العفوي بالمأساة ، وهذا الانفعال في رأينا هو المسبب لكثير من مظاهر الذكرى الحسينية فقد اشتملت ثورة الحسين على أحداث تبعث على الحزن العميق ، والأسى البالغ .

الثاني ـ انها ثورة اسلامية ، وقد رأى كثير من الناس في إحياء ذكراها وتمجيد أبطالها تمجيداً للاسلام الذين جاهدوا من أجله وقتلوا في سبيله .

الثالث ـ ان الثورات التي انفجرت ـ ضد الحكم القائم بعد انبعاث الروح النضالية التي أحيتها ثورة الحسين قد استعملت هذه الثورة كعامل من عوامل الإثارة وحشد الجماهير ، وجعلتها مناراً وشعاراً .

وقد كان هذا عاملاً هاماً في إعادة إحياء هذه الثورة في قلوب الناس وعقولهم ؛ ولن يقتصر هذا على العصر الأموي وحده بل حتى في العصر العباسي في ثورات بني ـ الحسن كان يبدو للناس وكأن روح كربلاء هي التي تحرك هؤلاء الثائرين .

الرابع ـ تشجيع أئمة أهل البيت على إحياء هذه الذكرى وحثهم على نظم ـ الشعر وإنشاده في شأنها وعقدهم لمجالس الذكرى في بيوتهم واستقبالهم للشعراء وسماعهم لهم .

وقد تعاظم تركيز الأئمة على هذا منذ عهد الامام الباقر والصادق عليهما السلام ومن الأسماء البارزة في هذا المجال الكميت بن زيد الأسدي والسيد الحميري وجعفر بن عفان ودعبل الخزاعي وغيرهم .

واعتقد أن التفسير الصحيح لحث أهل البيت على إحياء الذكرى يرجع الى أن إحياء هذه الذكرى يكشف للناس باستمرار عن الخط الذي انتهجه أهل البيت في حماية الاسلام والدفاع عنه وعن طبيعة القوى التي تناهضهم ومدى بعدها عن الاسلام وتبين أن جوهر الصراع يرجع الى العقيدة ذاتها والى الأمانة في تطبيق الشريعة الاسلامية بإخلاص في الحياة اليومية فمجرد إحياء الذكرى واستعراض أحداثها يتضمن إدانة للحكم القائم المنحرف

لأنه الاستمرار القانوني للحكم الذي أدى انحرافه الى ثورة الحسين وقتله .

وتومىء كلمة الصادق للفضيل بن يسار بصراحة الى هذا المحتوى للذكرى .

قال له : يا فضيل تجلسون وتتحدثون ؟ قال : نعم سيدي . قال : يا فـ هذه ـ المجالس أحبها أحيوا أمرنا رحم رأ أحيا أمرنا .

هذا هو التفسير الصحيح لمحتو ىوة أهل البيت الى إحياء هذه الذكرى المحتوى العاطفي بوجه خاص فأعالجه عن ديث عن (البكاء) .

الخامس ـ أن الذكرى الحسينية بحكم طبيعتها من جهة وبحكم ما تحمله من إدانة صريحة للحكم المنحرف وبحكم توجيه أهل البيت لها في هذا السياق قد غدت في عصور كثيرة وسيلة من وسائل المعارضة المستترة للحكم القائم .

فالانسان الشيعي ـ في ظل الحكم ـ يعاني من أمرين : الأول انه مضطهد ومطارد بسبب عقيدته ـ والثاني أنه تعلم من منهاج أهل البيت أن الاسلام عقيدة وشريعة متكاملة ولهذا فهو لا يقبل التزوير بحال من الأحوال .. فوضعه الحياتي وخطه الفكري وضعاه في مركز المعارضة وقد كانت الذكرى الحسينية تحقق له ممارسة المعارضة المستترة ضد الحكم في نطاق آمن نسبياً وتحقق له أيضاً راحة نفسية بسبب ما يتاح في الذكرى من أمثلة الأسوة الحسنة بأهل البيت وتضحياتهم .

السادس ـ رد الفعل ضد الطغاة من الحكام . أدرك الحكام الطغاة منذ العهد الأموي ماذا تعنيه إقامة الذكرى من إدانة لتجاوزاتهم وتصرفاتهم وظلمهم ، فحاولوا الوقوف في وجهها وقمعها ، نجد هذا في العصر الأموي في موقف هشام بن عبد الملك من الكميت الأسدي وغير ذلك ، ونجد هذا في العصر العباسي في شواهد كثيرة منها موقف المتوكل الذي أراد أن يجتث عوامل الإثارة بوسيلة وحشية فظة ، وذلك بأمره الذي أصدره بهدم قبر الحسين وما حوله من المنازل وحرثه وأجرى عليه الماء ، ومنع الناس من إتيانه ونادى صاحب شرطته : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به الى المطبق .

وفي العصور التالية لاحق العثمانيون هذه المآتم ومنعوا من إقامتها في أحيان كثيرة ، فكانت تقام سراً . وفيما بعد عهد العثمانيين لوحقت هذه المآتم ، ومنعت السلطة منها في بعض الأحيان ، وقيدتها بقيود كثيرة ثقيلة في أحيان أخرى ، لأجل إفراغها من محتواها النقدي للسلطة القائمة .

هذا الموقف من السلطة ضد المآتم كان دائماً ولا يزال يولد رد فعل لدى الانسان العادي فيدفعه الى التشبث بها ولعل شعور الانسان العادي حينئذ هو أن السلطة تريد أن تجرده من ملاذه الوحيد الذي ينفس فيه عن عاطفته ، وكبته النفسي ، ومعارضته .

هذه هي في رأينا العوامل التي ساهمت في وجود المأتم الحسيني واستمراره عبر العصور .

وقد مر المأتم الحسيني منذ أنشىء حتى الآن في ثلاثة أدوار :

الدور الأول ـ من مرحلة ما بعد الثورة الى سقوط بغداد أو قبله بقليل .

الدور الثاني ـ من سقوط بغداد ، وطيلة العصور المظلمة الى العصر الحديث .

الدور الثالث ـ بدايات العصر الحديث الى الآن .

وفي هذه الأدوار الثلاثة يوجد عنصر ثابت في محتوى المأتم الحسيني ، وتوجد عناصر متغيرة :

أما العنصر الثابت فهو استعراض المأساة وذكر تفاصيلها ونقد السلطة القائمة حيث تكون مبررات النقد موجودة إما صراحة وإما بالملازمة .

وقد كانت الذكرى في الدور الأول تتم كما ذكرنا بشكل ساذج وبسيط ثم تطورت خلال

هذا الدور تطوراً شكلياً وكمياً أما من الناحية النوعية فقد كان العنصر الأساسي فيها هو ذكر المأساة والإفاضة في تفاصيلها وتلوينها عن طريق الأعمال الشعرية الأولى في هذا الباب هذا بالاضافة الى نقد السلطة والبراءة من أفعالها وإدانة الجريمة ومرتكبيها واعتبار السلطة الراضية بالفعل السابق والتي تقطف ثمراته وتسير على المنهاج الذي أدى اليه شريكة في الإثم والجريمة .

وأظن أن الفقه السياسي يساعدنا في هذه المسألة . ليس من ناحية عنصر العقوبة وانما من ناحية عنصر الشجب وتحمل مسؤولية تصحيح الأوضاع التي أدت الى الجريمة .

فالمأساة ونقد السلطة حيث تكون مبررات النقد موجودة هما عنصرا المأتم الثابتان منذ بداياته الأولى في القرن الهجري الأول وحتى الآن . وأما العنصر المتغير في المأتم الحسيني فنستطيع أن نرصده ونكتشفه من خلال تطور الشعر الحسيني الرثائي عبر العصور .

بعد أن كان محتوى المأتم الحسيني يقوم على عنصري المأساة ونقد السلطة دخل فيه منذ سقوط بغداد أو قبله وحتى فترة العصور المظلمة عنصر جديد هو عنصر ـ الوعظ مع التركيز على المأساة .

لقد تأثر المأتم ـ كأي ظاهرة اجتماعية ثقافية بالجو العام : الانحلال السياسي والاجتماعي والتخلف الاقتصادي والحروب الأهلية ونمو تيار التصرف المرضي .

ونتيجة لهذا التأثر دخل عنصر الوعظ في المأتم الوعظ السلبي الخاطىء بوجه عام الذي يدعو الى الانصراف عن العمل الحياتي ويرفض العالم .. ويصور لنا البيت التالي هذه الفكرة إذ يدمج الموقف السلبي من الحياة بالمأساة الحسينية .

أترجو الخير من دنياً أهانت
حسين السبط واستبقت يزيدا

لقد استمر هذا الموقف ـ فيما يبدو ـ طيلة فترة القرون المظلمة وساعد على استمراره الحكم العثماني وجوره وفي هذه المرحلة دونت كتب المقاتل وهي التي تتحدث عن مقتل الحسين وصحبه .

من هذا الدور انتقل المأتم الى دوره الثالث وهو الدور الذي نعايشه الآن . وقد غدا المأتم الحسيني يشتمل الى جانب عنصر المأساة ونقد السلطة على العناصر التالية :

أولاً ـ لم تعد المأساة تشكل عنصراً نهائياً في المأتم وإن كانت لا تزال عنصراً رئيسياً فيه .

ثانياً ـ غدا المأتم يشتمل ـ غالباً ـ على عرض تاريخي يحيط ثورة كربلاء بعواملها التاريخية في حدود سعة وعمق الثقافة التاريخية للخطب.

ثالثاً ـ احتلت الدراسات الاسلامية والدعوة الى الاسلام مركزاً مهما جدا في المأتم الحسيني بحيث غدت مقياساً تعتمد عليه الجماهير في الإقبال على المأتم وانكفائها عنه .

رابعاً ـ غدا المأتم الحسيني مناسبة مهمة لمعالجة الأمراض الاجتماعية ومظاهر الانحطاط والدعوة الى إصلاحها على ضوء التوجيه الديني .

إن المأتم الحسيني الآن في أفضل حالاته وحين يقوم به غير الجهلة المتطفلين عليه يعتبر في رأيي مؤسسة من أعظم المؤسسات خيراً وبركة بما يقوم به من دور فعال في التثقيف والتوعية وفي الكشف عن تراثنا الفكري والحضاري وفي التوجيه الاسلامي الصحيح إزاء المشاكل الفكرية والعقيدية الغريبة عن تراثنا وعن حضارتنا .

وإذا كان من الحق أن نعترف بأن ما طرأ من تطورات اجتماعية وحضارية وثقافية في العقود الأخيرة من السنين قد ساهم في تطوير المأتم الحسيني فان من الحق أيضاً أن نعترف بأن جهوداً كثيرة بذلت في هذا السبيل في مجالات التأليف والتوجيه والدراسة الواعية لحاجات العصر والاستجابة لها .

فلا يسع مهتماً بدراسة هذه المسألة أن

يغفل جهود المقدس السيد محسن الأمين رحمه الله الذي ساهم قلمه الشريف مساهمة فعالة في تطوير المأتم الحسيني من بعض الجهات ولا يسع باحثاً أن يغفل أثر كتابه «المجالس السنية» في هذا الباب .

وقد ساهمت مؤسسات ثقافية ومعاهد علمية في العراق وايران وغيرهما في إنجاح عملية التطور .

٢ ـ ظاهرة البكاء

ظاهرة البكاء مثار نقد كثير . ومع أنها ليست ظاهرة منفصلة عن المأتم الحسيني إلا أني آثرت إفرادها من ناحية منهجية ، وذلك لتسهل ملاحظتها وفهمها .

ولعل الموضوعية تقضي علينا أن نسميها ظاهرة الحزن في المأتم الحسيني . والذكرى الحسينية فالحزن أعم من البكاء ومن يحزن ربما يبكي . وربما لا يبكي .

من أجل فهم هذه الظاهرة في ذاتها أولاً ، ومن أجل فهم مدلولها التاريخي ثانياً ، نقول : نحن في ذكرى الحسين نواجه مسألة تاريخية نقرأها أو نسمعها ، وعند هذه ـ الحقيقة نوجه سؤالاً حاسماً :

كيف نكتب التاريخ وكيف نرويه ؟

كيف نكتب وكيف نروي تاريخ الانسان الذي يحب ويبغض ـ مثلنا نحن الأحياء ـ والذي يخيب وينجح ـ مثلنا ـ والذي يمتلىء قلبه بالحزن والفرح ـ مثلنا ـ والذي تواجهه التحديات العظمى فلا يفر منها ، ولا يحتال عليها ، بل يثبت لها ، والذي تحل به الكوارث العظمى فيوجهها ببطولة أسطورية في التاريخ ، تاريخ الانسان كيف نكتبه وكيف نرويه ؟

هل نكتبه كما نكتب تقريراً عن الوضع الاقتصادي ؟

هل نكتب تاريخ الانسان كما نكتب تاريخ طبقات الأرض أو تاريخ المتحجرات ؟

هل نحول التاريخ الى جداول احصائية وعمليات تحليل للأرقام ودلالاتها ؟

أم نكتب التاريخ ونرويه فنصور به حياة الانسان المكون من لحم ودم ، وطموح وأمل ، وحب وبغضاء ، وبطولة وخسة ، من عواطف سامية وشهوات حقيرة .. وبكلمة واحدة : تاريخ الانسان ؟!

لا أتوهم أن باحثاً عالماً وأميناً يسمح لنفسه أن يقول : لا .. وأن يزعم أن علينا أن نكتب التاريخ ونرويه بلغة الأرقام .

واذا كان التاريخ يكتب ويروي باعتباره تاريخ الانسان فلنسأل :

كيف نقرأ التاريخ وكيف نسمعه ؟

هل نواجهه بعقل بارد وقلب بارد هل نمنع أنفسنا من الفرح حين تنفعل بالفرح ؟ وهل نمنع أنفسنا من الحزن ؟ وهل نمنع أنفسنا من الاشمئزاز حين تشعر بالاشمئزاز ؟

لا أظن أن انساناً عالماً وأميناً يرضى لنفسه أن يقول هذا .

نحن وجميع الناس في جميع الأزمان والأوطان يكتبون التاريخ ويروونه ، ويسمعون التاريخ ويقرأونه ؛ فينفعلون بما يسمعون ويقرأون : يحزنون أو يفرحون ، يعجبون أو يشمئزون وقد يتعاظم انفعالهم فيبتسمون ، أو تجري من عيونهم دموع الحزن والفخر الاعجاب .

دعونا من التاريخ ، حين نقرأ أو نسمع القصة الجيدة أو القصيدة الجيدة أو المسرحية الجيدة ألا تنفعل قلوبنا بما نقرأ أو نسمع ؟

من كل هذا يتبين لنا تفاهة كل النقد الذي يقال عن مظاهر الحزن في المأتم الحسيني وسطحية النظرة التي تعالج بها هذه المسألة .

اننا في المأتم الحسيني نسمع تصويراً تأريخياً لفاجعة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، قتل فيها أشخاص مقدسون ، وارتفعوا الى أعلى المراتب الانسانية بذلا وتضحية وفداء في عملية عطاء محض ، وقتل فيها أطفال ونساء ، عطشى غرباء متوحدين وحملت رؤوسهم ، وسبيت نساؤهم .. كل هذا ليس من أجل

أشخاصهم وانما من أجل أمتهم وعقيدتهم ، أمتهم التي نحن منها ، وعقيدتهم التي نعتنقها فمن حقنا ـ كبشر أسوياء ـ أن نحزن ، وأن نعجب ، وان نشكر . وقد يتعاظم بنا الحزن فنبكي دموع الحزن والاعجاب وعرفان الجميل .

يبقى علينا الكشف عن المدلول التاريخي لهذه الظاهرة وهو يتجلى لنا بوضوح إذا لاحظنا أن أئمة أهل البيت كانوا هم قادة الدعوة الاسلامية ، والقيادة المعارضة للانحراف في فهم الاسلام وتطبيقه ، وكانوا بالمرصاد دائماً لكل انحراف وتجاوز يصدر عن السلطة الحاكمة وما أكثر انحرافها وتجاوزاتها . ومن هنا فقد كان موقفهم يضعهم دائماً في موضع المعارض الصامد ، وكان رد فعل السلطة هو العنف والملاحقة والاضطهاد على أئمة أهل البيت وعلى أتباعهم .

وقد بلغ الاضطهاد من السعة والشمول في بعض الأحيان أنه كان يتعدى أشخاص الأئمة وأسرهم ليشمل جميع العلويين ، وذلك كالذي فعله المتوكل ـ فيما يحدثنا به أبو الفرج الاصبهاني في مقاتل الطالبيين «فقد كان المتوكل لا يبلغه أن أحداً ـ بر ـ أحداً من آل ابي طالب بشيء ـ وإن قل ـ إلا أنهكه عقوبة وأثقله غرماً ، حتى بات القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعد واحدة ثم يرفعنه ويجلسن على مغازلهن عوارى حواسر» .

واذن فنحن أمام عقيدة مضطهدة ، تلاحق في أشخاص قادتها واتباعها بشكل وحشي يضطرهم الى إخفاء عقيدتهم حفاظاً على حياتهم .

ومن الأمور الواضحة اجتماعياً ونفسياً أن القناعة الفكرية وحدها بالعقيدة لا تقدم ضمانة كافية للثبات والصمود أمام الأخطار العظيمة ، والاضطهاد العنيف الذي يستمر قروناً بعد قرون .

ان العنف المدروس المستمر ، والاضطهاد الذي لا يتورع عن شيء ، سرعان ما يحطم التماسك عند الجماهير حول العقيدة التي لا يتاح لهذه الجماهير أن تتصل بقادتها بحرية وأمان ، ولا يتاح لها دائماً أن تظل على اتصال تام بأفكار العقيدة ومواقفها ، ولا يتاح لها أن تمارس حياتها علناً وفقاً لعقيدتها .

إذا أدخلنا في حسابنا أن المسلم الشيعي العادي كان لا يبدو أمامه أمل بانفراج قريب ، وعلينا أن ندخل في حسابنا أن اضطهاد الشيعة في التاريخ لم يتوقف بصورة نسبية إلا في العقود الأخيرة من السنين .

ونلاحظ أن ثورة كربلاء المجيدة تمثل ذروة موقف المعارضة الذي قاده أهل البيت ضد الانحراف في فهم الإسلام وتطبيقه ، فهي نتيجة سلسلة من المواقف السابقة وفاتحة سلسلة من المواقف التالية ، وهي بشخصيتها المتميزة تكشف بوضوح مطلق عن طبيعة الصراع بين أهل البيت وبين خصومهم ، وعن أهداف هذا الصراع ، وهي غنية الى درجة مطلقة بعناصر النبل الانساني والإثارة العاطفية .

فمن أجل أن يبقى الشيعة على صلة حية بالأفكار والمبادىء الأساسية للصراع بين أهل البيت وبين خصومهم .

ومن أجل أن يكون لديهم ـ باستمرار ـ مثل أعلى خارق السمو للتضحية والفداء في سبيل الحق والعدل .

ومن أجل أن يضاف الى القناعة الفكرية بالعقيدة رباط عاطفي يضفي على ـ القناعة الفكرية حرارة وقوة ومضاء في مواجهة الاضطهاد والصبر على الشدائد ، ويحافظ على التماسك أمام ضربات العنف ، ويحيط الموقف العقلي بوهج عاطفي يرتفع بالعقيدة من مرتبة الحالة العقلية الى مرتبة الحالة الشعورية .

من أجل ذلك دعا أهل البيت الى نظم الشعر في الحسين وثورته ، ودعوا الى إحياء ذكراه .

وبعد ، فهذا حديث عن ثورة الحسين في

الواقع التاريخي وفي الوجدان الشعبي وستبقى هذه الذكرى مثلاً حياً ـ يهز ـ بروعته الخارقة ودعوته السامية ، وفدائيته العالية ـ الضمائر والقلوب وستبقى تدوي في ضمير التاريخ كلمات ـ السيدة زينب ـ ليزيد بن معاوية وهي سبية وهو خليفة حين قالت له :

«كد كيدك ـ واسع سعيك ـ وناصب جهدك ـ فو الله : لا تمحو ذكرنا ـ ولا تميت وحينا ـ ولا يرحض عنك عارها ـ وهل رأيك إلا فَنَد ـ وأيامك الا عدد ـ وجمعك إلا بدد» .

الكميت الأسدي

قتيل بجنب الطف من آل هاشم

ومن أكبر الأحداث كانت مصيبة ... علينا قتيلُ الأدعياء الملحّب[1]
قتيلٌ بجنب الطف من آل هاشمٍ ... فيا لك لحماً ليس عنه مذبب
ومنعفر الخدين من آل هاشم ... ألا حبّذا ذاك الجبينُ المتربُ

* * *

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم ... لأجوافها تحت العجاجة أزملُ[2]
هماهمُ بالمستلئمينَ عوابسٌ ... كحدآن يوم الدّجن تعلو وتسفلُ
يُحلئنَ عن ماء الفرات وظلّهِ ... حسيناً ولم يُشهر عليهن مُنصل
كأنَّ حسيناً والبهاليل حوله ... لأسيافهم ما يَختلي المتقبّل
يخضنَ به من آل أحمد في الوغى ... دماً طلّ منهم كالبهيم المحجّل
وغاب نبي الله عنهم وفقده ... على الناس رزءٌ ما هنالك مجلل
فلم أرَ مخذولاً أجلُّ مصيبةً ... وأوجب منه نصرة حين يخذل
يصيب به الرّامون عن قوس غيرهم ... فيا آخراً أسدى له الغيّ أول
تهافت ذُبّان المطامع حوله ... فريقان شتى : ذو سلاح وأعزل
إذا شرعت فيه الأسنة كبّرت ... غواتهم من كل أوبٍ وهللوا
فما ظفر المجرى إليهم برأسه ... ولا عذل الباكي عليه المولولُ
فلم أر موتورين أهل بصيرةٍ ... وحقٍّ لهم أيدٍ صحاحٌ وأرجلُ
كشيعته ، والحرب قد ثفيت[3] لهم ... أمامهم قِدرٌ تخيش ومِرجلُ
فريقان : هذا راكب في عداوة ... وباكٍ على خذلانه الحق معول
فما نفع المستأخرين نكيصهم ... ولا ضرّ أهل السابقات التعجُّلُ

ابو المستهل الكميت بن زيد الأسدي (٦٠ ـ ١٢٦هـ) .

(١) الملحب : المقطع بالسيف . والأدعياء جمع دعي وهو عبيد الله بن زياد بن سمية نسب الى أمه إذ لم يعرف له أب .

(٢) الصوت المختلط والصوت من الصدر .

(٣) ثفيت : اقيم لها الاثافي .